متى يكون الإنسان معتديًا؟

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٨/٤/١١م

ربما يظن الإنسان حينما يسمع كلمة "**العدوان**" أو "**الاعتداء**" أن معناها ينحصر فيمن ظلم الناس في أموالهم أو أبدانهم، ولكننا حينما نقرأ كتاب الله تبارك وتعالى فإننا نجده يعطي لهاتين الكلمتين أبعادًا معنوية بالإضافة إلى أبعادهما الحسية.

وهذا الأمر لفت انتباهي وأنا أقرأ في كتاب الله سبحانه وتعالى، فاقتبست لكم منه ثمانية أمثال هي عناوين لبعض الأنواع من اعتداء الإنسان.

والعدوان أو الاعتداء في الأصل، يعني باختصار: تجاوزَ الحدّ، ويقترب في معناه من الطغيان الذي هو تجاوز الحدّ أيضًا، والعالَمُ اليومَ في اضطرابه الذي نراه كلَّ يوم يعيش أنواع العدوان لأنه يمارس تجاوز الحدّ.

ولن نستطرد كثيرًا وسنبقى في مدرسة القرآن نتعلم منه ونستفيد وننتفع، ولن ننهض يومًا من الأيام من رقدتنا التي نعيشها في عالمنا حتى نتعلم من هذه المدرسة القرآنية، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وكيف نستقيم إذا لم نهتدِ بالذي يهدي إلى الأقوم؟

وكيف نسترشد إذا كنا لا نجعل منهاجنا مستمدًّا من توجيه الذي يهدي إلى الأقوم؟

ولنبدأ بذكر تلك الأنواع الثمانية من اعتداء الإنسان:

١- العدوان الحسِّيُّ على الأبدان والأنفس والأموال والمعاملات: فلم يُغفِلِ القرآن الكريم، وهو يتحدَّث عن العدوان الإنسانيّ أو البشريّ، النوعَ الأولَ الذي هو العدوان الحسِّيُّ على الأبدان والأنفس والأموال والمعاملات، فقد قال سبحانه وتعالى وهو يشير إلى هذا النوع من الاعتداء السلوكيّ في المال والأبدان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ فأشار إلى أكل أموال الناس بالباطل وقتل الأنفس على أنه عدوان وظلم، ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩-٣٠].

٢- إخلافُ العهود والمواثيق:

وأشار إلى هذا قولُه سبحانه وتعالى وهو يصف المشركين: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ﴾ والإلُّ: القرابة، ﴿وَلا ذِمَّةً﴾ أي: العهد واليمين والحلف، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠] لأنهم حينما أعمتهم أهواؤهم وطغت عليهم أنانيتهم لم يعودوا يتحملون نموذج الإيمان الذي يتوجه في الأولوية إلى الله، ويجعل كلَّ الأشياء تابعةً لذلك التوجُّه، فهم يبحثون عن عنصريٍّ ومادِّيٍّ يماثلهم.

أما المؤمن فقد وصف الله سبحانه وتعالى نموذجه حين قال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

إذًا: فقد ربّى القرآن الكريم المؤمن على أن يكون توجُّهُه إنما هو إلى الله سبحانه وتعالى، وتوجُّهُه هذا إلى الله يتفرَّع عنه اتِّباعٌ لرسوله، وبذلُ جهدٍ في سبيله، حتى وإن كانت هذه الثمانية تقف أمامه حاجزًا وعائقًا، ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ. .﴾ [المجادلة: ٢٢].

إذًا: كيف يستطيع هذا المادِّيُّ أو العنصريّ أن يجد وجهًا يقترب من خلاله من هذا المؤمن الذي توجّه إلى الله سبحانه وتعالى؟

لا يمكن أن يتجانس المتوجهون إلى الله مع المتوجهين إلى الأسباب والأشياء.

نعم، المؤمنُ آلِفٌ مألوف، وقادرٌ على التواصل مع الجميع، لكن المجانسة الروحية ممتنعة، فهي إنما تكون مع الحب والود، ولهذا بيَّن الله سبحانه في القرآن حقيقة مهمة وهي: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] إنها قضية نفسية، فلا يستطيع العنصريُّ أن يستبشر بالمؤمن حتى وإن كان هذا المؤمن قريبًا أو حليفًا فهو ناقض لكل العهود.

وهكذا نجد بعض الأقزام الذين يعتلون المناصب ويزعمون أنهم أولياءٌ للأمور لكنهم يحالفون الكيان الصهيونيّ الذي ثبت في الماضي والحاضر أنه كذّاب مُخْلِفٌ للعهود، "**وَلَكِنَّها الأَهْوَاءُ عَمَّتْ فَأَعْمَتِ**".

٣- العدوان على السنن الكونية والطبيعية التي خلقها الله سبحانه وتعالى في هذا الكون:

ألم يحْكِ القرآنُ على لسان إبليس: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٢٠] فالأزمات المرضية التي يعيشها العالَمُ، والتلوثُ البيئيُّ، وما يحصل اليوم من خَلَلٍ في الموازين... إنما هو بسبب عدوان الإنسان على التوازن الذي خلقه الله سبحانه وتعالى طبيعيًّا، فما خلق مخلوقًا إلاَّ وخلق في مقابله مخلوقًا آخر يتوازن معه، لكنَّ الإنسانَ اليومَ فوضويٌّ، وصل إلى حدِّ أنه يبحث عن تكثير النسل البشريِّ من غير طريقه المعتاد، ووصل إلى حدِّ إباحة الإجهاض...

وانظروا إلى تناقض تلك المادِّية حينما يتحدثون عن إجهاضٍ مستنسَخٍ من أجل الحصول على عضو، في نفس الوقت الذي يقذفون فيه بقاذفاتهم أطنانَ المتفجرات التي تقتل آلاف البشر.

أيُّ تناقضٍ هذا؟! حين يتحدَّثون عن إنقاذ شخصٍ ما ومن خلال طريقٍ لم يؤذن به، في نفس الوقت الذي يقتلون فيه آلاف البشر؟!

إنه تناقض المادية.

والله سبحانه وتعالى فتح الآفاق ليكون الإنسان متعاملاً مع السنن الطبيعية، لكنهم يريدون أن يشوِّهوا توازن الطبيعة، ثم يبحثون عن طريقٍ مشوَّهٍ من أجل أن يتداركوا ما حصل بسبب ذلك التشويه.

إنه تناقض يتراكم فوقه تناقض، ولا نهاية لتلك التراكمات التي ما أنتجها إلا بُعدُ الإنسان عن الاهتداء بهدي الله سبحانه، ربِّه الذي خلق، وهو أعلم بما خلق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وفي هذا نقرأ هذا النموذج في كتاب الله سبحانه حين يقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ وهذا من الإعجاز القرآنيّ الذي أَعجبُ معه كيف يحار الإنسان في سؤالٍ أو جوابٍ عن قضايا حدَّدها القرآن، فقوله: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي: فمن طلب النسل البشريَّ وتخلُّقَ الإنسانِ من غير هذين الطريقين، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥-٧] أي هم المعتدون على سنن الله الكونية.

وبعد ذلك يظهر في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب من يُفلسف القضايا ويتحدَّث من خلال عبثية لا نهاية لفوضويتها، ويتحدَّثون باسم الإسلام، والقرآنُ صريح وهو يوجِّه الإنسانَ ويقول له: هذه سنن الله في الكون: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ، . . وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

إنه تمرُّدُ الإنسان وغرورُه على خلق الله سبحانه وعلى مشيئته وعلى إرادته الشرعية.

واليومَ ينشرون بكثرة قضيةً أصبحت غير قابلة تقريبًا للمناقشة، وهي قضية أطفال الأنابيب، ولكن - ومن خلال إحصائياتٍ أعلمها - يشكِّل أطفالُ الأنابيب اليومَ في دراساتٍ سَيكولوجيةٍ نفسيةٍ ظاهرةً شاذَّة، وبدأت الانحرافات تظهر، لأن الشك لا بد أن يَرِدَ إلى هذا المخلوق، ليقول لنفسه: أنا مصنوعٌ في المختبر، وتبدأ الانحرافات.

وانتظروا حتى تسمعوا الأخبار التي تقدم إليكم النتائج عن جرائم الشذوذات السلوكية.

شهوة الولد التي عند العقيم أو العقيمة ينبغي أن يقابلها رِضاء الإنسان وهو يتعامل مع السنن الكونية، وهناك الكثير من أسباب تداوي الإنسان الكونية، فلو أنه توجَّه إلى الله بصدقٍ سيجد من الأسباب الشيء الكثير، وسواءٌ قُدِّر الولدُ له أو لم يُقَدَّر فهذا قَسْمُ الله، وفي الجنة يعطيك الله آلاف الولدان.

إنها قضية في العمق الإنسانيّ، لكننا أصبحنا ننحرف كثيرًا عن الطريق الذي ينظر إلى أعماق شخصية الإنسان، ونبحث عن الظواهر، ونغيِّر ونفرح بالتغيير، ولا نعلم أن هذا التغيير سوف يُنتج انفجاراتٍ على مستويات أخرى.

وفي يوم من الأيام قرَّر شعبُ الصين بقيادته السياسية قتلَ العصافير، وقالوا: "إن العصافير تأكل ثروةً كبيرة من القمح، وهي تغير على السنابل، فلنقتلِ العصافير"، والعصفورُ حين يبقى في الجوِّ مدَّةَ ربع ساعة يموت، فهو لا يقدر على الطيران أكثر من ربع ساعة، وأعلن القرار السياسيُّ قتلَ العصافير في الصين، وخرج الناس من أجل أن يُصْدِروا أصواتًا مزعجة تجعل الطيور هاربة، فهربت العصافير.

وبعد عشرين دقيقة وقعت عصافير الصين ميتة، وفُتح بابُ الأوبئة التي لا يعادلها ملايين الأطنان من القمح، والذي لم يكونوا يعرفون سرَّه.

إنهم يتعاملون مع طبيعةٍ خَلَقَهَا صانعٌ حكيم وجعل فيها التوازن، فقد كانت العصافير تأكل أنواعًا من الحشرات، وهذه الحشرات بعددها لا تسبب خلل التوازن، لكنْ حين ماتت العصافير ظهر البلاء الكبير.

إنه جهل الإنسان وتطاوله، فالإنسان يتطاول اليوم ويعتدي على السنن.

٤- توجيه الناس إلى الأهواء بعيدًا عن مقاصد الشريعة:

ما يسمَّى بالتوجيه الإيديولوجي الذي يختلف، يضادُّ توجيه الله الخالقِ الذي خلق الإنسان، والذي هو أعلم بما خلق، ويسمى ذلك أيضًا عدوانًا، يقول سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩] فحدَّدهم وحدَّد هويتهم ومضموناتهم وسلوكهم.

والإنسان العاقل هو الذي يجعل هواه تبعًا للقرآن، كما أخبر الصادق المصدوق محمد صلى الله عليه وسلم: **(لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ حَتى يَكُونَ هَواهُ تَبعًا لِمَا جِئتُ بِهِ)** فحينما تصبح الأهواء البشرية تابعة للقرآن عند ذلك ينضبط الإنسان، وحينما يخرج الإنسان بأهوائه دون أن يلتفت إلى هدي القرآن فإنه يكون معتديًا، لأنه سوف يضل، لأن توجيهه هو التوجيه الأجهل، أما القرآن فإنه الأعلم، لأن الله أخبر عن القرآن فقال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١١٦].

فمن أنت أيها الإنسان؟

وما علمك حينما يكون في مقابل ذلك علمُ الله؟

فإذا قرر الله تعالى أنه أنـــزل القرآن بعلمه فأين علمُك أيها الإنسان حين يتعارض مع القرآن؟

أيكون الأجهلُ أعلمَ من الأعلم؟

أيكون الجاهلُ متطاولاً على العليم العلاَّم القائل: ﴿اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]؟

الحربُ اليومَ على الإسلام – لاسيما الحرب الثقافية والفكرية – حربٌ شديدة، وهم يخافون أن يرجع الإنسان إلى هداية الله سبحانه.

مهما اخترع ومهما ضل في أهوائه لا يهم، فالمخيف أن يرجع الإنسان إلى هداية القرآن وإلى هداية الله.

هي حرب العصر.. **حرب اللاإسلام مع الإسلام**، لاسيما الحربُ الثقافية التي تأخذ أبعادًا كثيرة، فهم يشوِّهون فكر الإسلام وثقافته وفقهه ومنهجه من خلال صورٍ إسلامية في الظاهر ومن خلال ممارساتٍ كثيرة، لصرف المسلمين عن دينهم، من خلال إثارة الغرائز وجذب الشباب إلى التُّرَّهات.

٥- استعمال الأحكام الشرعية للإضرار بالناس:

وهو نوعٌ ينبغي أن يتنبه إليه المسلمون، لأن العدوان الذي سَبَقَه يكون من خلال مُحارِبٍ للإسلام، أما هذا النوع فإنه يكون من الداخل، فهو يستخدم الحكم الشرعيَّ للإضرار بالناس.

وانظروا هذا النموذج الذي يورده القرآن، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي العُدة، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا . . ﴾ فقبل أن تنتهي العدة يقول لها: راجعتُكِ لنفسي، فهو لا يريدها، لكنه يريد استعمال حكمٍ شرعيٍّ من أجل أن يجعلها أسيرته.

وهذا نموذج، فالقرآن يضرب لنا أمثلة ليست وحدها هي المقياس لكن عليك أن تفهم النموذج والعلة فيه.

إنه يستعمل حكمًا شرعيًّا، إذ يحقُّ له قبل انقضاء العدة أن يراجع زوجته، لكن مقصود الحكم الشرعيّ أنه في هذه المدة راجع نفسه ووجد أن رجوع الزوج إلى زوجته ورجوع الزوجة إلى زوجها أمرٌ مناسب، فأعادها لأنه يريدها زوجة له، لكنْ قد يستعمل الإنسان هذا الحكم، فيقول لها قبل انقضاء العدة: راجعتُكِ لنفسي، ثم يهجرها لأنه يريد أن يعذبها، ويريد أن يضاعف عدتها حتى تكون ثمانية أشهر، فهو يريد أن يعاقبها مستخدمًا حكمَ الله الشرعيّ، وقس على هذا...

والأمثلة كثيرة، والذين يستخدمون الأحكام الشرعية للإضرار بالناس كُثُر.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣١]

يا سبحان الله! انظر كيف يعالج القرآن المرضى.

يقول له: أنت بهذا تظلم نفسك، فصحيحٌ أنك قمت بإضرار هذه المرأة المسكينة، لكنك وقعت في نار جهنم، لأنك تحتال، والمحتال عقوبتُه أن يوضع في الأغلال.

لقد ظلم نفسه، فعرَّض نفسه لحساب العدل.

الله الذي يراك حين تقوم، والذي هو قائم على كل نفس بما كسبت، تُعرِّض نفسك من أجل نـــزوةٍ إلى وقفةٍ أمام الحق العدل سبحانه.

هكذا يعالج الله سبحانه العمق الإنسانيَّ المريض.

٦- الزيادة على الحدِّ الشرعيّ بالأعذار: فالشريعة حدود.

وهذا أمر يُمارس اليوم، فمثلاً: رجلٌ يبيع رجلاً ما بيعًا إلى أجل، وعندما ينتهي الأجل ولا يستطيع الأداء لا ينتظر، ولا يسمع من القرآن: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] أو لا يأخذ حقَّه، فإذا كان لا يريد الانتظار فله في الشريعة أن يأخذ حقَّه إذا كان بيعًا، لا إذا كان قرضًا، لأن القرض حسن، والقرض لا يجوز في حالٍ من الأحوال أن يُحَدَّ له أجل لأن حسن، أما في البيع فله أن يبيع بعض ممتلكاته ويأخذ حقَّه الشرعيّ.

لكن ما الذي يحصل اليوم؟

عندما يصل المشتري إلى الأجل المحدد يختلق عذرًا جديدًا ويقول: ارتفعت الأسعار، أو اختلفت الظروف... ويتلاعبون.

واقرؤوا في القرآن هذا الوصف العجيب على لسان كليم الله موسى وهو يخاطب نبيّه شُعيبًا، فيقول وهو يعقد العقد على ابنته: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: أقوم بالخدمة ثماني سنوات، ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ [القصص: ٢٨] فإذا أردت أن أقوم بخدمتك عشر سنوات أو ثمانية فلا بأس، لكن المهر ثمانية.

وسيدنا شعيب عليه الصلاة والسلام يريد العشرة لا لمصلحة مادية، إنما كان الله سبحانه قد أمره بتربية موسى، والعشرة كاملة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] فهو يريد أن يُخرجه من صُحبته مُهيَّأً لتلقي الرسالة، فيقول له: بيني وبينك ثمانية، فإن أحببت وتطوعت أكمِلِ العشرة.

فهو يريد إكمال العشرة، لكنه يُنبِّه إلى الحدّ، وفي هذا فائدة لنا كبيرة.

فقوله: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: لا تَبِعَةَ عليّ، ولا طلب في الزيادة، فالواجب واجب.

واليوم نسمع من أصحاب فتوى وعلى مستوى عالميّ من يقول: عندما عَقَدَ نكاحه كانت تلك القيمة مختلفة عن قيمة ذلك الوقت، وعلينا أن نعيد ذلك إلى مقياس آخر، فكم يساوي بالفضة أو بالذهب...

وهذا احتيال واحتيال واحتيال وتلاعب...

دينُنا الحلالُ فيه بَيِّنٌ والحرام بَيِّن، وأَعجبُ من الذين يحتارون، ولكن وكما قلت: **"وَلَكِنَّها الأَهْوَاءُ عَمَّتْ فَأَعْمَتِ"**.

ورحم الله ابن عطاء الله السكندريّ حين قال: **"لا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقُ عَلَيْكَ، وَإِنَّما يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ الهَوى عَلَيْكَ"**، وحين يغلب الهوى عليك سوف تبحث، ولن تعدِمَ طريقًا يوصلك إلى مرادك بالاحتيال، والأمر يسير.

الشيطان يُملي عليك آلاف الحِيَل، وينتظرك وينتظر هذا الاستعداد منك، لتتساءل: كيف لي أن أحتال؟ فيقول: الحيل جاهزة، ولكن انتظرني وسآتيك بالحيل الكثيرة.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] بموافقة القرآن، وبالوقوف على الحدود التي ليس فيها ريب: (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ).

وكثيرًا ما نتحدث حتى مع أهل العِلْم، ويقولون: هذا حدٌّ وذاك سلوك، وفرقٌ بين الحدِّ والسلوك.

لهذا عندما لا نتخذ السلوك الإسلاميّ منهجًا لنا، ونتحدث عن الحدِّ دون أن ننظر إلى المقاصد والحيثيات والظروف... فكأننا نخدع أنفسنا، فالله سبحانه وتعالى ما أعطانا هذا الدين من أجل أن نقوم بحركات أو ممارسات، إنما لمقاصد، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي الميزان الذي يعطي مقاصد الشرع ومقاصد الدين، ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥] أي لتتحقق العدالة، فإذا لم تتحقق ونتج عن مثل هذه الممارسات ظُلمٌ، فهو حرامٌ في حرام في حرام، وذلك مهما احتال بعض الناس باسم الإسلام وقالوا للناس: هذا جائز، لأن مقاصده ظلم صريح، واضطراب في الموازين، وذهاب لمعاني العدالة.

لذلك قال سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام كما يحكي القرآن: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ انظر كيف يخاطب المُستعِدُّ للرسالة رسولاً، ويقول له: ﴿فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: لا تعتدِ عليّ.

نعم، المُخاطَبُ كلُّ البشر، كبيرًا كان أو صغيرًا، تقيًّا أو ورعًا.

﴿فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي لا تعتدِ عليّ، ولْتُقَلْ هذه للكبير والصغير والتقيِّ وغيرِ التقيّ، لأن الإسلام يُعلِّمنا الانضباط، ويُعلِّمنا المساواة، ويضعنا في ساحة العبودية عبادًا أمام الله.

٧- تحريم المباح:

فحينما يُحظّر المباح يسمي ذلك الله سبحانه وتعالى عدوانًا، يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾ فهذا هو العدوان بعينه، حينما تتلاعب في حدود الله فتقلب المباح، وأنت قادر أن تقلبه بأهوائك، وأن تجعل له حظرًا ومنعًا، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]

واليومَ ألا يُشاعُ بين الناس أن الإنسان مهما فعل من الموبقات والشذوذات والعلاقات الجنسية المحرّمة والانحرافات... عليه أن يبتعد عن تعدُّد الزوجات؟!

أليست هذه هي ثقافة المجتمع؟

وقد سمعت كثيرًا وبلغني من أعداد كبيرة أن المرأة الزوجة لا تمانع صراحةً أن يرتكب زوجها الزنى آلاف المرات، لكن بشرط ألا يتزوّج.

هذا نوع من أنواع العدوان.

فالزواج قد يكون مُباحًا، وقد يكون مكروهًا، وقد يكون مندوبًا، وقد يكون مُحرمًا، وحتى الزواج الأول قد يكون محرَّمًا وليس الثاني أو الثالث أو الرابع، فللزواج ضوابط، واقرؤوا كتب الفقه، فالزواج له ضوابطه ضمن الأحكام الشرعية، لكنني أضرب أمثلة حتى نرى إلى أين وصلنا في العدوان.

٨- ترك الدعاء:

فسمّى الله ترك الدعاء عدوانًا، قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] أي الذين يتركون الدعاء.

وكرَّر ذلك في القرآن مرارًا، ومن ذلك قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي عن دعائي كما هو إجماع المفسرين، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

نعم، إنها قضية لابدَّ للإنسان أن يتأمل فيها حتى يفهم وجه العدوان.

أنت في خَلْقِك وفي تكوينك مُحتاجٌ إلى الله، ولا يمكن لك في نَفَسٍ من الأنفاس أن تخرج عن حاجتك، وكما يقول أهل التحقيق: "**فَاقَتُكَ لَكَ ذَاتِيَّة**"، أي: ضعفُك أصليّ.

والله سبحانه وتعالى تفضّل عليك بالإعانة في كل نَفَس، قال سبحانه في نص القرآن: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أي من كان ماديًّا لا إيمان في قلبه، ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ من كان مؤمنًا، ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا، كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:١٨-٢٠]

فعطاء الله وإعانته وإمداده للجميع، فما كان الله سبحانه وتعالى يحصر إعانته وإمداده للمؤمن، إنما جعل الإعانة إعانتين: إعانة عامة للجميع، وإعانة خاصة:

فالإعانة الخاصة: إعانةُ باطنك حتى تكون مُقبلاً على الله، وحينما تطلب هذه الإعانة يعطيك إياها.

والإعانة العامَّة: كأن يبسط لك الرزق، مؤمنًا كنت أم كافرًا.

وعلى كلِّ الأحوال فالدعاء عبادة كالصلاة والصيام والزكاة، ومقصودُها إظهارُ حاجتك إلى الله، والاعتراف بحاجتك إلى الله، فحين لا تعترف بهذه الحاجة مع أنه سبحانه يعينك في كل وقت، فكيف لا يكون ذلك عدوانًا على هذه الحقيقة؟

يقول صاحب الحكم العطائية: "**عِنَايَتُهُ فِيكَ لا لِشَيْءٍ مِنْكَ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجَهَتْكَ عِنَايَتُهُ، وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُهُ؟ لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهَ إِخْلاصُ أَعْمَالٍ، وَلا وُجُودُ أَحْوالٍ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إلاَّ مَحْضُ الإِفْضَالِ، وَعَظِيمُ النَّوَالِ**"، يعني: هو يخلقك لعملك ولصلاحك، وأين كنت حين أراد ذلك في الأزل؟

وإياك أن تتوهم أنَّ دعاءك تذكيرٌ لله، "**إِنَّمَا يُذَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الإِغْفَالُ، وَإِنَّمَا يُنَبَّهُ مَنْ يُمْكِنُ مِنْهُ الإِهْمَالُ**"، فإياك أن تتوهم أنك بدعائك تُذكّر الله أو تُنبِّهه.

لا.. فعبادة الدعاء إنما هي لتُظهر فقرك إلى الله، ولتُظهر حاجتك، وحين لا تُظهر فقرك وتزعم بحالك أنك مُستغنٍ فأنت معتدٍ، لأن المُستغني مع وجود العطاء معتدٍ.

هذه أنواع ثمانية من أنواع العدوان التي يذكرها القرآن، وكم في قرآننا من تفصيلاتٍ تُدخلنا إلى ساحة العِلْم وتُخرجنا من الجهل:

١- يتحدَّث عن الاعتداء السلوكيّ في المال والأبدان.

٢- يتحدَّث عن إخلاف العهود والمواثيق.

٣- يتحدَّث عن الاعتداء على السنن الكونية التي خلقها سبحانه.

٤- يتحدَّث عن توجيه الناس إلى الأهواء بعيدًا عن مقاصد الشريعة.

٥- يتحدَّث عن استعمال الأحكام الشرعية للإضرار بالناس.

٦- يتحدَّث عن الزيادة على الحدود الشرعية بالأعذار.

٧- يتحدَّث عن تحريم المباح.

٨- يتحدَّث عن ترك الدعاء.

إنها مساحة كبيرة لمفهوم العدوان، حتى يعلم الإنسان أنه ربما يتوهم في يوم من الأيام أنه بعيد عن العدوان ويكون معتديًا، وحين نبتعد عن هذه الأنواع الثمانية من العدوان، لن يعتدي علينا أحد.

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]

رُدّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.